***تمهيد:**

لكل علم نظريات ومؤسسين له قدموا إسهاماتهم الفكرية والتأسيسية لتطوير العمل التنظيري السوسيولوجي وتزكيته بمفاهيم جديدة وتصورات حديثة زامنت كل عصر من العصور التي شهدها كل عالم، لتكون أساسا لنظريات حديثة ونقدية، وهنا لا ينبغي النظر إلى النظرية المعاصرة وإسهامات المفكرين المعاصرين بديلا للنظريات الكلاسيكية بل هو امتدادا وتطويرا للعديد من الموضوعات التي طورها الكتاب المؤسسون، وتطويرا للأدوات التنظيرية المتاحة، ليشير إليه ابن خلدون في علم العمران البشري، ليفرض أوغست كونت تسمية ورؤية جديدة لهذا العلم لذلك سوف نحاول أن نشير عبر هذا الفصل إلى رواد علم الإجتماع بدءا بالحضارة العربية أولا فالغربية.

أولا- ابن خلدون (1406-1332):

يعد العلامة ابن خلدون من أهم المفكرين المسلمين الذين عاشوا مابين القرنين الثامن والتاسع الهجريين ومن ثم فهو أندلسي الأصل، أما زيغي النشأة تونسي المولد، تخرج من جامع الزيتونة، وقد كان مثقفا موسوعيا ملما بكل المعارف والعلوم والفنون والآداب المعروفة في عصره، وبرع كثيرا في علم التاريخ وفلسفته بل يعد في الحقيقة مؤسس علم الإجتماع من جهة ومؤسس علم العمران البشري من جهة أخرى، قبل أن ينسب ذلك العلم بعد خمسة قرون، إلى سان سيمون أو أوغست كونت أو إميل دوركايم. وقد ألف ابن خلدون مجموعة من الكتب والمصنفات أهمها كتاب (**مقدمة ابن خلدون**)، وكتاب(**تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**) و(**التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا**).

1- أقسام علم العمران البشري:

قسم ابن خلدون علم الإجتماع إلى أبواب ستة هي:

الباب الأول في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض

الباب الثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية

الباب الثالث في الدول ولخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية

الباب الرابع في العمران الحضري والبلدان والأمصار

الباب الخامس في الصنائع والمعاش و الكسب ووجوهه

الباب السادس في العلوم واكتسابها وتعلمها.

2- الخطوط الرئيسية لفلسفة ابن خلدون الإجتماعية:

- علم الإجتماع عند ابن خلدون هو الذي يدرس التجمع البشري أو الإنسان، ويتحقق هذا التجمع بالتعاون والتضامن والتآزر، فالإنسان مدني بطبعه ويعني هذا أنه غير قادر بمفرده، على تدبير حياته الدنيوية الطبيعية.

- يقوم علم الإجتماع على التاريخ والمقارنة والتفسير لمعرفة طبيعة المجتمعات والدول والأمم، ومقارنة بعضها ببعض قصد تحديد القوانين التي تتحكم فيها، لكن لابد أن يكون ذلك التاريخ مبنيا على النزاهة والعلمية والحياد والموضوعية، بعيدا عن الخرافات والشائعات والأساطير والروايات الزائفة.

- يرتبط علم الإجتماع عند ابن خلدون بعلم التاريخ، ويعني هذا أنه لا يمكن فهم الو قائع والظواهر المجتمعية إلا بدراسة التاريخ دراسة علمية، لتتبع المجتمعات في تطورها ومسارها لرصد القوانين الكلية التي تتحكم فيها، ليتشابه مع علماء الإجتماع الوضعيين، وخاصة أوجست كونت وإميل دوركايم، سان سيمون وهربرت سبنسر، وغيرهم. وحتى عند علماء الإجتماع الماركسي فلقد" استخدم ماركس المنهج التاريخي في دراسة الظواهر الإجتماعية، وفهمه لعملية تقسيم العمل الإجتماعي وتطور المجتمع البشري الذي من خلال مجموعة من المراحل التاريخية والإجتماعية، التي بدأها منذ ظهور المجتمعات القبلية أو ما أسماها بالمشاعية البدائية، مرورا بمرحلة العبودية، ثم مرحلة الإقطاع التي مهدت لظهور الرأسمالية التي تحمل الكثير من التناقضات التي يجب تغييرها بواسطة الثورة وقيام الإشتراكية والمجتمع الشيوعي

اللاطبقي.لقد ساعده هذا المنهج في دراسة مسيرة التاريخ وديمومة التغير المستمر كبديهية أساسية تفسر عموما طبيعة ميكانيزمات الحياة الإجتماعية.[1]

- حدد ابن خلدون أغراض علم العمران بنوعين:

- ✓ **أغراض مباشرة:** تتلخص في ضرورة الكشف عن طبيعة الظواهر الإجتماعية ووظائفها، والوقوف على القوانين التي تخضع لها (أغراض نظرية).
- ✓ **أغراض غير مباشرة:** تتلخص في الإنتقاع بحقائق الإجتماع وقوانينه في حقائق التاريخ وتحليل الأخبار وتعليل الأحداث (أغراض عملية).[2]

- يرى ابن خلدون أن المجتمعات الإنسانية مرت بثلاث أطوار وهي النشأة – النضج والإكتمال – الهرم والشيخوخة حيث يفنى المجتمع.

- يؤكد ابن خلدون على تأثير البيئة الجغرافية على الحياة الإجتماعية فهي تشكل نوع المجتمع ونوع الحرفة هل هي زراعية أم صناعية، صيد أو تجارة، بل وتؤثر على أخلاق الناس وطباعهم وبيوتهم وأزيائهم مثل الشرق العربي أحسن مناطق العالم لأنه معتدل بين الحرارة الزائدة في الجنوب والبرد الشديد في الشمال أما الأقاليم الغير معتدلة فأهلها غير معتدلين في أحوالهم.

- ركز ابن خلدون على السلطة وأبرز أهميتها في الحفاظ على الدولة والمجتمع، وأشار أن السلطة تتولد من القوة وهي تتسم بالعصبية كما هو موجود في المجتمعات البدوية الشجاعة الصبورة.

- يفرق ابن خلدون بين نوعين من العمران:

- ✓ **العمران البدوي:** الذي يمثل بداية كل حياة طبيعية وعادة ما يتمركز هذا النوع من التجمع البشري خارج نطاق المدن والحرب ويتميز بخصائص مميزة كالقوة، والميل للحرب.
- ✓ **العمران الحضري أو المدني:** وهو الذي ينشأ في المدينة على أنقاض حياة البداوة.

- تحدث" ابن خلدون "عن العلاقة بين النقود والقدرة الإنتاجية للدولة، فقوة الدولة وتقدمها لا يقاس بما يتوافر لديها من معادن كالذهب والفضة، وإنما يقاس بقدرتها على الإنتاج الذي يجلب لها الذهب والفضة.

3- مفهوم"العصبية "عند" ابن خلدون:

هي الشعور الداخلي الذي يشد أفراد القبيلة إلى بعضهم في حالات المواجهة فتتقارب العواطف ويتعاون الأفراد لمواجهة الأخطار التي تواجههم، فيتحركون تلقائيا بمشاعر مشتركة، ويستجيبون لأحدهم في حالة الإعتداء عليه، ويعتبرون ذلك اعتداء على القبيلة كلها ولهذا تتحرك القبيلة تحت ضغط العصبية القبلية مستجيبة لكل دعوة للدفاع عن ذاتها.

- أكد ابن خلدون على صلة علم الإجتماع بالعلوم الإجتماعية الأخرى، كما أكد على أهمية البيئة و العوامل الإقتصادية والجغرافية في تفسير وفهم الظواهر الإجتماعية.

4- المبادئ الرئيسية التي يرتكز عليها علم الإجتماع عند ابن خلدون:

- أن الظواهر الإجتماعية تخضع لقوانين لا تكون ثابتة كتلك التي تحكم الظواهر الطبيعية.
- إن اكتشاف القوانين يكون بعد جمع عدد ضخم من الحقائق وملاحظة ما يقترن بها أو يليها من وقائع.
- إن منظومة القوانين الإجتماعية الواحدة تصدق على المجتمعات المتماثلة البنية على الرغم من تباعد هذه المجنمعات في المكان والزمان.
-إن هذه القوانين ايست نابعة من دوافع بيولوجية أو بدنية وإنما هي اجتماعية في طابعها.[3]

ج- ابن خلدون وعلم الإجتماع الإقتصادي

- يعد ابن خلدون واضع علم الإجتماع الإقتصادي، حيث توقف في كتابه المقدمة عند الكثير من الظواهر الإقتصادية بالتحليل والمناقشة والتأمل العقلاني والفلسفي، كتناوله للعمل الذي جعله سعيا جادا لكسب الرزق وضرورة العمل لعيش الإنسان.

---

[1]- وسيلة خيار: مرجع سابق، ص195

[2]- أحمد رأفت عبد الجواد: مرجع سابق ،ص12.

[3]- فراس عباس البياتي: مرجع سابق، ص22

- ترتفع القيمة الإقتصادية للمنتج وتنخفض حسب طبيعة العمل من حيث الجودة والرداءة، كما ينقص العمل ويضيع بانهيار العمران وخرابه.
- بين ابن خلدون أنواع العمل فحصرها في الكسب والفلاحة، الصناعة والتجارة، والصيد،الأنشطة الإقتصادية وتحصيل الضريبة.
- إما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية في مواد بعينها وتسمى الصنائع من وتجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك، أو في مواد غير معينة وهي التجارة.
- ومن جهة أخرى، يثبت ابن خلدون أن العمل هو مصدر الثروة والإثراء، وتحصيل الرفاهية وتحقيق الجاه. ومن ثم تتعدد الطبقات الإجتماعية - بحسب العمل والجاه والحظوة - من الأسفل إلى أعلى طبقة هي طبقة الملوك، بل يمكن القول بأن المال هو السبيل لتملك القوة والسلطة والنفوذ والوصول بسرعة إلى الحكم.
- تأكيده على أهمية الإقتصاد الحر، وعدم تدخل الدولة في الشؤون الإقتصادية إلا من بعض المجالات الهامة مثل الدفاع والدبلوماسية، التمويل العام والإسكان.

أ- ابن خلدون وعلم الإجتماع السياسي:

تناول ابن خلدون موضوعين أساسيين يتعلقان بالإجتماع السياسي وهما:

*** العصبية:**

وهي تعصب بعض الناس لبعضهم البعض فيقوم الفرد بالدفاع بشدة عمن يتعصب لهم وهي بمثابة مفهوم الهوية حاليا، حيث بواسطتها يتكاتف الناس لعمل أي شيء في سبيل إقامة الدولة، ويرى ابن خلدون أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، وأن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم لا بد أن يكون متغلبا عليهم بالعصبية و إلا لم تتم قدرته على ذلك.

*** صعود وأفول الدولة:**

وفى هذا يؤكد ابن خلدون بأن للدول أعمار كما أن للأفراد أعمار، ويحدد عمر الدولة بمائة وعشرون عاما تكون الدولة في بداية هذه المدة الزمنية أي في الجيل الأول، في أوج قوتها نظرا لقوة العصبية عندها، وفى الجيل الثاني الذي مدته أربعون عاما كما الجيل السابق، يذهب خلف البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة، ويتحول حال الدولة إلى الملل والترف والخصب وتتفكك الجماعة وتظهر النزعة الفردية وفى الأربعين سنة الأخيرة وهى الجيل الثالث من عمر الدولة، ينفصل الأفراد انفصالا كاملا عن تاريخ عصبيتهم فتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة فتهن الدولة وتنقرض.

رابعا- أوغست كونت (1798-1857):

فرنسي ولد في مونبلييه والتحق في سن 16 بمدرسة البولتكنيك وهي من أوسع المدارس شهرة وتميز في ذلك الوقت بتدريس الرياضيات والطبيعة ثم أصبح سكريتيرا للكونت سان سيمون عندما كان طالبا في سن 19 سنة، انفصل عنه عام 1823 كان يلقي بعض المحاضرات الخاصة عن الفلسفة الوضعية وقد نشر كتب ومذكرات عنها ما بين 1830-1842.أهم أعماله "دراسة في الفلسفة االوضعية" في ستة مجلدات، ففي سنواته الأخيرة خاصة بين 1851-1854 نشر مؤلفه "مذهب في السياسة الوضعية" وذلك في أربع مجلدات طبق فيها مكتشفاته في علم الإجتماع النظري، كان له كتاب مشترك 1817-1823 مع سان سيمون باسم "خطة العمليات العلمية اللازمة لإعادة تنظيم علم المجتمع".[4]

ظهرت كلمة سوسيولوجيا للمرة الأولى عام 1839 وذلك في سياق فقرة من الدرس 37 من دروس الفلسفة الوضعية لأوغست كونت، كان هذا الباحث مرغما على إدخال هذه الكلمة المستحدثة ففي البداية كان يرغب بشدة أن يطلق اسم الفيزياء الإجتماعية على العلم المعني بالمجتمع لكن قبله بعدة أشهر قام "أدولف

[4]- http://alkottob.com ،تاريخ الزيارة 12-12-2017، محمد شهاب: رواد علم الإجتماع .ص18

كيتلي" Quetelet عالم رياضيات وفلك بلجيكي بتبني تعبير "الفيزياء االإجتماعية" ليطبقه على علم جديد هو الدراسة الإحصائية للجماعات البشرية، صار كونت مجبرا على أن يجد اسما جديدا يطلقه على علمه سيكون "سوسيولوجيا" وهي كلمة مستحدثة من الجذر اللاتيني socius أي المجتمع والجذر اليوناني logos أي معرفة.

1- قانون الحالات الثلاثة:

الدرس الأول في الحلقة يقدم "قانون الحالات الثلاثة" الذي يلخص برأيه تطور الفكر البشري ففي تطورها تمر المعرفة عبر ثلاثة عصور تتوافق مع المراحل التاريخية الثلاثة وكذلك مع أعمار العقل (الفكر) الثلاثة[5]:

أ- العصر اللاهوتي أو التخيلي:

وهو عصر يمثل طفولة البشرية وفيه يبحث الذهن عن سبب الظواهر إما أن تنسب إلى الأشياء أو بافتراض كائنات خارقة للطبيعة (تعدد الآلهة) أو وجود إله واحد (التوحيدية)، يمثل الذهن البشري الظواهر كمنتجات للفعل المباشر والمستمر لعوامل خارقة للطبيعة، هذا هو زمن المعتقدات السحرية والأرواح،الأديان ويتجه إلى ما هو أبعد من الواقع نحو عبادة الأسلاف عالم حيث الموتى يحكمون الأحياء.

ب- العصر الميتافيزيقي أو المجرد:

وهو عصر شباب الفكر وفيه تترك العوامل الخارقة للطبيعة مكانها إلى قوى مجردة مثل الطبيعة عند سبينوزا والإله المهندس عند ديكارت، وفي هذه المرحلة بقي الفكر حبيس تصورات فلسفية مجردة وكونية ويرد الواقع إلى مبادئ أولية هذا هو منهج الفيلسوف كما يكتب كونت.

ج- العصر الوضعي:

يصفه كونت على أنه الحالة الرجولية لعقلنا فاللجوء إلى الوقائع وإلى التجربة واختبار الواقع هو ما يسمح بالخروج من الخطابات التأملية، هذا هو المبدأ الأول في الوضعية ففي حين أن الذهن الميتافيزيقي يلجأ إلى تصورات أبدية وكونية لا يخضعها للواقع، فإن الذهنية الوضعية تواجه الفرضيات مع العلم الواقعي ليؤدي هذا النهج إلى التخلي عن النظريات العامة لصالح معارف دقيقة عملياتية ومرتبطة بترتيب الحيثيات المعطاة ونظامها، ويعلن كونت مزدريا أن النظريات الكونية والمطلقة جوفاء وغير نافعة فيقول:"الكل نسبي ذلكم هو الشيء الوحيد المطلق".

و توافق كل مرحلة من هذه المراحل تطور الإنسان من الطفولة حتى الرجولة، إذ تتوافق المرحلة اللاهوتية مع مرحلة النشأة والطفولة، وتتماثل مرحلة الميتافيزيقا مع مرحلة الشباب والمراهقة، وتتطابق مرحلة الوضعية مع مرحلة النضج والرجولة والإكتمال.

قسم أوجست كونت علم الإجتماع إلى قسمين:

- ✓ **قسم ستاتيكي:** يدرس الظواهر المجتمعية في حالتها الساكنة والثابتة والنسبية، كدراسة النظم الاجتماعية الجزئية (النظام الأسري والنظام التربوي، النظام السياسي والنظام الإقتصادي) بالتركيز على العلاقات الترابطية والسببية بين المتغيرات.
- ✓ **قسم ديناميكي:** يدرس التغير وحركة المجتمع عبر الصيرورة الزمنية.

علاوة على ذلك، فقد صنف كونت العلوم إلى ست مجموعات: أولها الرياضيات، ثم الفلك، والفيزياء والكيمياء، وعلم الحياة، وعلم الإجتماع أو الفيزياء الإجتماعية، وبالتالي فالرياضيات مفتاح العلوم جميعا. أما علم الإجتماع فهو آخرها وتاجها جميعا و "تلك حقيقة إذ أن الرياضيات هي أول العلوم فقد توصل إليها اليونانيون، ثم تلاها علم الفلك الذي ظهر على يد كوبنرك وكبلر وغاليلو، ثم الفيزياء التي ظهرت في القرن السابع عشر عند لافوازييه (Lavoisier) ثم علم الأحياء في القرن التاسع عشر عند بيشات (Bichat)

---

[5]- فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه: مرجع سابق،ص ص 25-26.

وغيره، وأخيرا علم الإجتماع في القرن التاسع عشر على يدي أوغست كونت".[6]
فكيف نستقي المعرفة الوضعية إذا في رأي كونت؟ ذكر كونت أربعة إجراءات هي :الملاحظة والتجربة المقارنة والمنهج التاريخي، مؤكدا أن الملاحظة أو استخدام الحواس الفيزيائية يمكن تنفيذها بنجاح إذا وجهت عن طريق نظرية، وقد كان كونت مدركا أن التجربة فعليا وواقعيا تكاد تكون مستحيلة في دراسة المجتمع..كما أكد إمكانية عقد المقارنات التي تعيش معا زمنا بعينه، وبين الطبقات الإجتماعية داخل المجتمع الواحد،أما المنهج التاريخي يعنى بالبحث عن القوانين العامة للتغير المستمر في الفكر الإنساني ولايشترك منهج كونت التاريخي إلا في القليل من نواحيه مع المناهج التي يستخدمها المؤرخون الذين يؤكدون العلاقات السببية بين الو قالع الملموسة ويقيمون قوانين عامة ".[7]
وعليه فقد جاءت وضعية أوجست كونت حلا للفوضى التي كانت تعيشها فرنسا إبان انتصار الثورة الفرنسية على الإقطاع، فنتج عن ذلك مجموعة من الإضطرابات السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وعرف المجتمع انقساما وتفككا وتصدعا وفوضى عارمة، لذلك حاول كونت أن يوفق بين النظام والتقدم أو بين رغبات المجموعة المحافظة، ورغبات البورجوازية التي كانت تناصر الثورة فجاءت الوضعية للدفاع عن النظام والتقدم وتوظيف العلم لتحقيق أمن المجتمع وسلامته.

---

[6]- زيدان عبد الباقي: التفكير الاجتماعي- نشأته وتطوره، دار الفكر العربي،القاهرة،مصر، 1981،ص ص 317-318.
[7]- نقولا تيماشيف : مرجع سابق،ص ص 51-52